مكانة السياق في البحث الدلالي عند المفسرين

د. حسين حامد الصالح
جامعة صنعاء-كلية التربية

أولاً: التمهيد

أهمية السياق في علم اللغة الحديث:

من أهم المناهج الحديثة لدراسة المعنى السياق بأنواعه المختلفة، وقد وجد لنظرية السياق دعاة ومؤيدون في الغرب والشرق نظَّروا وأصَّلوا لها القواعد والأصول في علم اللغة الحديث(١).

وقد ثبت من خلال الدراسات الحديثة، أن السياق بأنواعه المعروفة من العناصر المهمة التي لا يمكن إقصاؤها عند دراسة المعنى، لما له من أهمية كبرى في تحديد المعنى وتوجيهه، لأن معظم الكلمات لها في المعجم أكثر من دلالة، والذي يحدِّد هذه المعاني ويفصلها هو السياق في مورد النص(٢).

ويرى أصحاب نظرية السياق من المحدَثين وفي مقدمتهم العالم الإنكليزي (فيرث) أنَّ معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تُستعمل بها، أو الدور الذي تؤديه. ويرى (فيرث) أيضاً أنَّ المعنى: «لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة»(٣). ويذهب أصحاب تلك النظرية إلى حد المغالاة في التأكيد على أثر السياق في بيان المعنى، فيقولون: «إنَّ الكلمات لا معنى لها على الإطلاق خارج مكانها في النَّظم»(٤).

ومن دعاة هذه النظرية أيضاً اللغويُّ الفرنسي (جوزيف فندريس) الذي يرى أنَّ الذي يعيِّن قيمة الكلمة في الحالات كلها «إنما هو السياق، إذ أنَّ الكلمة توجد في كل مرة تُستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلَّ عليها، والسياق أيضاً هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تَدَعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية»(٥).

---

(١) ينظر: علم اللغة، د. محمود السعران ص٣٠٩-٣١٣.

(٢) ينظر: منهج البحث اللغوي، د. علي زوين ص١٨٥.

(٣) علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ص٦٨.

(٤) دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان ص٥٥.

(٥) اللغة، جوزيف فندريس ص٢٣١.

ولا يستطيع أحد أن ينكر الأثر الكبير للسياق في التحليل الدلالي، فالسياق يعد عاملاً حاسماً في تعيين قيمة الكلمة، ففي كل مرة تُستعمل فيها الكلمة تكتسب معنى محدداً مؤقتاً، ويفرض السياق قيمة واحدة على الكلمة هي المعنى الذي تدل عليه في سياق معيَّن دون سياق آخر.

وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها حتى ما كان منها غير لغوي. لأنَّ معنى الكلمة يتعدَّل تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها(١).

ويحدد أصحاب نظرية السياق أربعة أنواع من السياق، هي: السياق اللغوي، وسياق الموقف، والسياق العاطفي، والسياق الثقافي(٢). والذي يعنينا في هذا البحث النوع الأول من هذه الأنواع ألا وهو: السياق اللغوي.

ثانياً: مفهوم السياق اللغوي عند اللغويين المعاصرين

يُعرِّف (ستيفن أولمان) السياق اللغوي بأنه: «النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم»(٣). وهو لا يشمل الكلمات والجمل السابقة واللاحقة للكلمة فحسب، بل النص الذي تَرِد فيه، والكتاب المتضمِّن لذلك النص أيضاً(٤).

فالسياق إذن هو النسيج اللغوي الذي يحيط باللفظة عند ورودها في العبارات والتراكيب، وهو يشمل العبارة التي تَرِد فيها الكلمة، والنص المتضمِّن لتلك العبارة، والكتاب الذي فيه ذلك النص.

وهذا تعريف واسع للسياق، غير أنَّ أقرب تعريف له إلى موضوع بحثنا وأوضحه أنه: «الموقع الذي ترد فيه اللفظة في الجملة، أو هو الأسلوب الذي تَرِد فيه اللفظة فتكتسب توجيهاً دلالياً من ذلك الأسلوب، وقد ترد في سياق آخر فتكتسب دلالة أخرى»(٥). فالسياق اللغوي هو نسق الكلام ومجراه، إذ ترتبط الكلمة في ذلك السياق بوشائج قوية بما قبلها وما بعدها من كلمات، وهو يشمل كل ما يصاحب اللفظ من ألفاظ تساعد على توضيح المعنى، سواء أتقدمت تلك الألفاظ على اللفظ أم تأخرت عنه، أم اكتنفته من جانبيه.

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ للسياق أثراً كبيراً في الكشف عن دلالة الألفاظ والتراكيب،

---

(١) ينظر: علم الدلالة ص٦٩.

(٢) ينظر: علم الدلالة ص٦٩. دور الكلمة في اللغة ص٥٦.

(٣)و(٥) دور الكلمة في اللغة ص٥٤-٥٥.

(٥) منهج الخليل في دراسة الدلالة القرآنية، د. أحمد الجنابي ص١٦٢.

وهي في نسقها ونصها، أي في صورتها التركيبية، لا في صورتها المعجمية، ذلك أن للألفاظ دلالتين بحسب ما يرى علماء اللغة المحدثون.

الأولى: هي الدلالة الأساسية أو المعجمية: وهي معنى الكلمة في المعجم منفردة(١). أي وهي خارج النص.

وهذه الدلالة هي جوهر المادة اللغوية المشترك في كل ما يُستعمل من اشتقاقاتها وأبنيتها الصرفية(٢).

والثانية: هي الدلالة السياقية، وهي معنى الكلمة داخل السياق، أو داخل النص(٣). لأنَّ الكلمة في المعجم لها دلالات كثيرة، فإذا ما وُضعت في سياق معين فإنَّ ذلك السياق يحدِّد معناها ويخلصها من اشتراك الدلالات، وفي هذا يقول (فندريس): «إننا حين نقول بأنَّ لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما، إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعيِّنه سياق النص. أما المعاني الأخرى فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقاً»(٤).

فالكلمة تحمل خلال مسارها التاريخي وجوهاً دلالية كثيرة تُحفظ معها في معاجم اللغة، ولكنها عندما توضع في نص معين، تتخلص من ذلك الركام من المعاني، وتشخص لها دلالة واحدة في الأغلب، ولكنها قد تحتمل وهي في النص دلالة أو دلالات أخرى قريبة من تلك الدلالة ومن الممكن الجمع بينها، يقول (جون لاينز) متحدثاً عن أثر السياق في تحديد معنى الكلمة: «ينظر: الناس في أغلب الأحيان إلى الكلمات وكأن لكل كلمة كياناً مستقلاً منفصلاً، ولكن... لا يمكن فهم أية كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها والتي تحدد معناها»(٥). ورأى أن العلاقات القائمة بين الألفاظ في النص هي عبارة عن: «شبكة واسعة معقدة من علاقات المعنى، أي أنها تشبه نسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد، يمثل كل خيط فيه إحدى هذه العلاقات، وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة»(٦). فعندما نسمع جملة أو نقرؤها نرى كلماتها يفسر

(١) ينظر: علم اللغة وفقه اللغة، د. عبد العزيز مطر ص٤٧. علم الدلالة ص٣٦-٣٧.

(٢) ينظر: علم الدلالة العربي، د. فايز الداية ص٢٠.

(٣) نفسه ص٢٢.

(٤) اللغة ص٢٢٨.

(٥) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز ص٨٣.

(٦) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز ص٨٣. وينظر ص٢١٥ وما بعدها.

بعضها بعضاً فإذا كانت واحدة منها غير مألوفة لنا، حاولنا تفسيرها معتمدين على سياق النص[١].

وما ذكره هؤلاء العلماء صحيح إلى حد كبير، ذلك أن كثيراً من الألفاظ وخاصة (الألفاظ المشتركة) التي تحمل معاني عدة، لا يمكن تحديد دلالاتها ما لم تُنْظَم في سياق وكذلك الحال فيما يتعلق بالألفاظ المتضادة المعنى المسماة بـ(الأضداد)، فهذه الألفاظ وغيرها لا يمكن معرفة أي من معانيها هو المراد على وجه التحديد إلا بالقرينة، وهذه القرينة قد تكون لفظية: سياقية أو غير سياقية، وللقرينة السياقية في هذا الأولوية في الفهم والتحديد، لأن النص يؤلِّف وحدة واحدة من العلاقات الدلالية. فاللفظ المشترك الذي يسلك في نص معين، لا يكون له في ذلك النص إلا معنى واحد من بين كل معانيه المعجمية، ويُعرف هذا المعنى بواحدة من القرائن الثلاث المعوَّل عليها في كل اللغات ومنها اللغة العربية، وهذه القرائن هي: القرينة السياقية، والقرينة الحالية، والقرينة العقلية.

ثالثاً: نظرة القدامى إلى السياق اللغوي

وإذا كنا قد قدمنا القول بنظرة المحدثين إلى السياق، فمن الواجب أن نبيِّن نظرة المتقدمين إليه وبخاصة من اشتغل منهم بتفسير القرآن الكريم.

لقد أدرك علماء التفسير أهمية السياق في تعيين دلالة الألفاظ القرآنية، وعدُّوا النظر إلى سياق اللفظة القرآنية المراد تفسيرها من قواعد التفسير الصحيح[٢]. يقول ابن القيم متحدثاً عن أهمية السياق في تعيين الدلالة: «السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته»[٣]. ويَعدُّ بدر الدين الزركشي السياق من الوسائل التي يُتوصل بها إلى فهم ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين الأوائل فيقول: «وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به (الراغب) كثيراً في كتاب (المفردات) فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق»[٤].

وإذا كانت هذه نظرة المتأخرين من القدامى إلى السياق وأثره، فمن المنطقي أن

(١) ينظر: اللغة ص٢٥٢.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٩١/٦ و٣٨٩/٩ الطبعة المحققة، وسأشير إليها بالرمز (ق).

(٣) بدائع الفوائد، لابن القيم ٩/٤-١٠. وينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢٠٠/٢.

(٤) البرهان، للزركشي ١٧٢/٢. يعني بذلك الراغب الأصفهاني صاحب كتاب (المفردات).

يكون اهتمام المتقدمين بالسياق أشدَّ وأبلغ. وهو ما سنلاحظه من خلال استقراء جملة من تفسيرات علماء التفسير القدامى لبعض الألفاظ القرآنية، ظهرت فيها بجلاء عملية الاستعانة بقرينة السياق اللغوي في فهم النص القرآني.

رابعاً: أثر السياق في تعيين دلالة الألفاظ المشتركة

الاشتراك أن تكون اللفظة محتمِلة لمعنيين أو أكثر(١). ويُعرِّف الأصوليون اللفظ المشترك بأنه: «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة»(٢). فمثلاً كلمة (العين) تدل على العين الباصرة، وعين الماء، وعين السحاب، وعين المال... إلخ.

وقد تضمَّن القرآن الكريم كثيراً من تلك الألفاظ المشتركة، ومن المؤكد أنَّ أيَّ لفظ من تلك الألفاظ لم يَرِد على وجه واحد وبدلالة واحدة في القرآن كله، بل إنه يأتي في سياقات مختلفة ودلالات متباينة يحددها كل سياق، وقد كان المفسرون الأوائل يُولُون السياق أهمية قصوى ويستعينون بهذه القرينة في تحديد معاني الألفاظ المشتركة في كل موضع تَرِد فيه من القرآن الكريم.

خلق: فمن ذلك على سبيل المثال كلمة (خلق) التي وردت في القرآن الكريم مرات كثيرة وفي سياقات متعددة، وكان لها في كل سياق دلالة مختلفة عن دلالاتها الأخرى، حتى أحصى لها علماء الوجوه والنظائر سبع دلالات(٣). وقد كانت قرينة السياق عاملاً حاسماً في تحديد تلك الدلالات في كل موضع وردت فيه، فقد جاءت بمعنى (الدين) في قوله تعالى: [**لا تبديلَ لخَلْق الله**][الروم:٣٠]، قال ابن عباس: أي لدين الله(٤). وفي قوله تعالى: ((**ولآمُرَنَّهُمْ فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْق الله**))[النساء:١١٩]، قال: دين الله(٥).

ففي الآية الأولى كانت القرائن اللفظية متظاهرة على أن المراد بـ(الخَلْق) هو (الدين) وذلك قوله: [**فأقِمْ وجهَكَ للدين حنيفاً فِطرةَ اللهِ التي فطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخَلْق الله ذلك الدين القَيِّم**] قال مجاهد في تأويل قوله: (فطرة الله). «الفطرة، الدين الإسلام»(٦). فيكون (الدين) الذي أمر الخالق باتباعه، قد ذُكِر أربع مرات في هذه الآية،

---

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس ص٤٥٦.

(٢) المزهر، للسيوطي ٣٦٩/١.

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى القارئ ص٢٨١.

(٤) صحيح البخاري ١٧٣/٣. وينظر: فتح الباري، لابن حجر ٦٥٨/٨. الوجوه والنظائر، هارون ص٢٨١.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٢١٨/٩-٢١٩ (ق)، تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ص٥٠٧.

(٦) تفسير مجاهد ص٥٠٠.

اثنتان منها قبل اللفظة المذكورة وواحدة بعدها. فالصواب أن تسلك هذه اللفظة في سياقها. وقد يكون استعمال (خَلْق الله) بمعنى (دين الله) من روائع النظم القرآني المعجز، إذ أنَّ تكرار لفظة واحدة مرات عدة في موضع واحد قد يكون ثقيلاً على الأذن والنفس، فمن البلاغة أن يكون هناك تناوب في الألفاظ.

أما الآية الثانية فإنني لم أتبيَّن القرينة اللفظية المباشرة التي اعتمدها ابن عباس ومجاهد فيما ذهبا إليه، لأنَّ السياق اللفظي يحتمل دلالة أخرى، وهي أن يكون (خلق الله) بمعنى الهيئة التي أنشأ الله الخلائق عليها، وهو وجه قوي من التأويل رواه الطبري عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، قالا: هو إخصاء البهائم[١]. وهذا المعنى يتفق وسياق الآية، لأنَّ ما قبل هذه الآية هو قوله: **[ولآمُرَنَّهم فلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعام]** أي يشقُّون آذانها فيجعلونها بحيرة[٢]. وشق آذان الأنعام وإخصاؤها كله من تغيير خلقة الله لتلك المخلوقات. جاء في (لسان العرب): «وقوله عز وجل **[فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله]**، قيل: معناه (دين الله) لأنَّ الله فطر الخلق على الإسلام وخلقهم من ظهر آدم عليه السلام، كالذَّرِّ، وأشهدهم أنه ربهم وآمنوا، فمن كفر فقد غيَّرَ خَلْق الله، وقيل: هو الخصاء لأنَّ من يخصي الفحل فقد غيَّر خلق الله، وقال الحسن ومجاهد: (فليغيرن خَلْق الله)، أي: دين الله»[٣].

وفي قوله تعالى: **[إنْ هذا إلا خُلُق الأولين]**[الشعراء:١٣٧]، قال ابن عباس وغيره: أي دينهم[٤]. ويبدو أنه أراد: الدين بمعنى العادة، وليس بمعنى الإسلام لأنَّ سياق الآيات يصوِّر تذكير هود عليه السلام لقومه بنعم الله عليهم، ومما قاله لهم: **[واتَّقوا الذي أمَدَّكمْ بما تعلمون، أمدَّكم بأنعامٍ وبَنين، وجنَّاتٍ وعُيون]**[الشعراء:١٣٢-١٣٤]، **[قالوا سواءٌ علينا أوَعظْتَ أم لم تكن من الواعظين، إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين]**[الشعراء:١٣٦-١٣٧]، أي: إنما نتبع في فعلنا هذا عادة من كان قبلنا من الأقوام.

وقال مجاهد في تأويلها: (خُلُق الأولين): «يعني كَذِب الأولين»[٥]. ويبدو أنَّ هذا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٩/٢١٥-٢١٦ (ق). تفسير القرطبي ٥/٣٨٩.

(٢) تفسير الطبري ٩/٢١٤ (ق).

(٣) لسان العرب ١٠/٨٥ (خلق).

(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٩/٦٠. تفسير القرطبي ١٣/١٢٥.

(٥) تفسير مجاهد ص٤٦٤، وينظر: تأويل مشكل القرآن ص٥٠٦.

التأويل محمول على قراءة من قرأها: (خَلْقُ) بفتح فسكون، وهي قراءة معتمدة لثلاثة من القراء السبعة، ومعنى (خَلْقُ الأولين) اختلاقهم وكذبهم[١]. وقد رجَّح الطبري القراءة الأولى حيث قال: «وأَولى القراءتين في ذلك بالصواب قراءة من قرأ: (إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين) – بضم الخاء واللام– بمعنى: إنْ هذا إلا عادة الأولين ودينهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيَّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك احتذاء منهم سنة من قبلهم من الأمم واقتفاء منهم آثارهم فقالوا ما هذا الذي نفعله إلا خُلُق الأولين يعنون بالخُلُق: عادة الأولين»[٢].

ويرى أهل اللغة أنَّ (الخَلْق والخُلُق) معناهما واحد في الأصل، لكن: «خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر. وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[٣]. وجاء في اللسان: «الخُلق، بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسَّجِيَّة، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها»[٤].

وجاء (الخَلْقُ) بمعنى (الصنع والنحت والتصوير) في قوله تعالى: [**إنَّما تعبدون من دونِ اللَّـه أوثاناً وتَخلُقُونَ إفْكاً**][العنكبوت:١٧]، قال ابن عباس في قوله تعالى: (وتخلقون إفكاً): وتصنعون كذباً. وفي رواية عنه: تنحتون وتصورون[٥]. وقال مجاهد: معناه: وتقولون كذباً[٦] وما قاله ابن عباس هو الذي يؤيده سياق الآية وقصتها فالسياق يتحدث عن عبادة الأوثان صراحة ولم يذكر قولاً قالوه، هذا أولاً، وثانياً إنَّ هذه الآية تتحدث عن قوم إبراهيم عليه السلام وكانوا معروفين بصناعة الأصنام ونحتها وتصويرها.

وفي كل موضع يضاف فيه (الخلق) إلى البشر فإنَّ المفسرين يؤولونه بـ(التقدير والتصوير) تفريقاً بين خلق الخالق وخلق البشر. ومنه تأويلهم لقوله تعالى مخاطباً عيسى

(١) ينظر: تفسير القرطبي ١٢٥/١٣.
(٢) تفسير الطبري ٦٠/١٩.
(٣) المفردات، للراغب الأصفهاني ص٢٢٥ (خلق).
(٤) لسان العرب ٨٦/١٠ (خلق).
(٥) تفسير الطبري ٨٨/٢٠.
(٦) تفسير مجاهد ص٤٩٥.

عليه السلام: **[وإذْ تخلقُ منَ الطِّينِ كَهيئةِ الطَّير بِإذني]**[1] [المائدة:١١٠]، وقال الراغب الأصفهاني: «والخلق لا يستعمل في (صفة)[2] الناس إلا على وجهين: أحدهما: في معنى التقدير، كقول الشاعر:

ولأنت تَفْري ما خلقتَ وبعـ ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفري

والثاني: في الكذب، نحو قوله تعالى: **(وتخلُقُونَ إِفْكاً)**»[3]. ويبدو أنه يرى أنَّ معنى (تخلقون) هنا (تكذبون) لدلالة كلمة (إفك) على الكذب.

<u>الفتنة:</u> ومن الألفاظ المشتركة التي كان السياق عاملاً مهما في تعيين دلالتها في كل موضع من المواضع التي وردت فيها لفظة (الفتنة)، التي ذُكِر لها عشرة وجوه دلالية في القرآن الكريم[4].

ومن تلك الأوجه أو الدلالات (المعذرة) قاله ابن عباس في تأويل قوله تعالى: **[ثُمَّ لَمْ تكن فِتنتُهُمْ إلا أن قالوا واللَّهِ ربِّنا ما كنَّا مشركين]**[الأنعام:٢٣]، قال: فتنتهم، معذرتهم[5]. وعنه أيضاً، فتنتهم: قولهم أو كلامهم[6]. وعن مجاهد مثله[7]. ويبدو لي أنَّ ابن عباس قد لحظ السياق في هذا التأويل، لأنَّ قول المشركين: **(واللَّهِ ربِّنا ما كنَّا مشركين)** هو عبارة اعتذار عما كان منهم، فيسوغ القول عندئذ، إنَّ فتنتَهم: هي اعتذارهم بالباطل والكذب، قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك أنْ يقال: معناه: ثم لم يكن قيلُهم –عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله– **(إلا أن قالوا واللَّهِ ربِّنا ما كنَّا مشركين)**، فوُضعت (الفتنة) موضع (القول)، لمعرفة السامعين معنى الكلام»[8].

وقد ردَّ السياق أيضاً معنى (الفتنة) إلى أصله وهو: الحرق بالنار[9] في قوله تعالى: **[إنَّ الذين فتَنُوا المؤمنين والمؤمنات]**[البروج:١٠]، قال ابن عباس: «حَرَّقوا المؤمنين والمؤمنات»[10]. وقال مجاهد: عذَّبوا[11]. وفي تفسيره: أحرقوا[1].

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر ص٢٨١. ينظر: تأويل مشكل القرآن ص٥٠٦.

(٢) في المطبوع: (كافة) وهو تحريف.

(٣) المفردات ص٢٢٥ (خلق). وينظر: تأويل مشكل القرآن ص٥٠٧.

(٤) ينظر: الوجوه والنظائر ص٧٨.

(٥) ينظر: صحيح البخاري ١٢٧/٣. تفسير الطبري ٢٩٩/١١ (ق).

(٦) ينظر: تفسير الطبري ٢٩٩/١١ (ق).

(٧) ينظر: تفسير مجاهد ص٢١٣. تأويل مشكل القرآن ص٤٧٢.

(٨) تفسير الطبري ٣٠٠/١١ (ق).

(٩) ينظر: المفردات ص٥٥٩ (فتن).

(١٠)و(٤) تفسير الطبري ٨٧/٣٠.

والذي يناسب سياق الآيات أن تُفسر (الفتنة) هنا بـ(الحرق بالنار)، يؤيد ذلك دليلان، **الأول**: أنَّ سورة (البروج) تتحدث عن (أصحاب الأخدود)، وتتلخص قصتهم في أنَّ هؤلاء القومَ كانوا مؤمنين، فأراد الملك ثنيهم عن إيمانهم فأَبوا، فحفر لهم أخدوداً في الأرض وأضرم فيه النيران وأحرقهم فيه. فسياق القصة يدل على أنَّ ما حصل لهؤلاء هو الحرق بالنار. قال تعالى: **(قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ، النار ذات الوقود، إذْ همْ عليها قُعود)** ثم يقول بعد آيات ثلاث: **(إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات..)**. فسياق المقام يقتضي أنْ يكون (فتنوا) هنا بمعنى (حرَّقوا).

الثاني: أنَّ (الفَتْن) في اللغة معناه: الإحراق[٢]. قال الزمخشري: «ودينار مفتون: فُتِن بالنار، وكلُّ شيء أُدخل النار فقد فُتِن»[٣]. ومن المتفق عليه عند المفسرين وأهل اللغة أنَّ الصوابَ أنْ يُحمل اللفظ على أصل معناه، إلا إذا دلَّت القرائن على أنَّ ذلك الأصل ليس مراداً.

وجاءت (الفتنة) بمعنى (النفاق) في قوله تعالى: **[ولكنَّكمْ فتنتُمْ أنْفُسَكمْ]** [الحديد:١٤]، قاله مجاهد في تأويل (الفتنة) في هذا الموضع[٤]، وقال غيره: (فتنتم أنفسكم): «يعني كفرتم. وكذلك كل فتنة في المنافقين واليهود»[٥]. وما قاله مجاهد يظهر فيه أثر السياق بشكل جلي، لأنَّ موضوع الآيات يصور محاورة تجري بين المؤمنين والمنافقين في الدار الآخرة، وعلى النحو الآتي: **[يومَ يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظُرُونا نَقْتبسْ من نورِكمْ]** ثم ينادون المؤمنين مستعطفين: ألم نكن معكم؟ فيجيبهم المؤمنون: **[بلى ولكنَّكم فتنْتُم أنفسَكم وتربصْتمْ وارْتبْتُم..]**[الحديد:١٤]، ويبدو لي أنَّ الصواب ما ذهب إليه مجاهد، وهو أنَّ (الفتنة) هنا تعني: (النفاق)، لأنَّ الآيات تتحدث عن المنافقين وتصف حالهم، ولم يجر فيها ذكرٌ للكافرين. هذا أولاً، وثانياً لوجود القرينة اللفظية وهي قوله على لسان المنافقين: **(أَلَمْ نكُن معَكم)** لأنَّ المنافقين يتظاهرون عادة بالإيمان، ويدخلون في صف المؤمنين ولا أحد يعرفهم، لذلك قالوا للمؤمنين: (أَلَمْ نَكُن

---

(١) ينظر: تفسير مجاهد ص٧٤٧.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس ٤/٤٧٣ (فتن).

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري ص٤٦٣ (فتن).

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٢٧/١٢٩.

(٥) الوجوه والنظائر ص٧٨.

معكم) أما الكافرون فهم معروفون بعدائهم العلني لأهل الإيمان، فلا يمكنهم قول ذلك.

فالأَوْلى أن يُحمل معنى (الفتنة) في هذه الآية على أنه (النفاق)، وبذلك تكون هذه الدلالة وجهاً جديداً أضافه مجاهد إلى دلالات (الفتنة) التي أُحصي منها عشر دلالات في القرآن الكريم(١).

وجاءت (الفتنة) بمعنى (الامتحان والابتلاء) في قوله تعالى: [**أَحَسِب الناسُ أن يُترَكوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنَّا الذين من قبلِهم فلَيعلَمَنَّ اللهُ الذين صدقوا ولَيعلَمَنَّ الكاذبين**][العنكبوت:٢-٣]، فعن مجاهد في قوله: (وهم لا يفتنون) قال: «يُبْتَلَوْن في أموالهم وأنفسهم» وعنه في قوله: (ولقد فتنَّا) قال: ابتلَينا. فسياق الآيات يشير إلى أنَّ ادعاء الإيمان باللسان لا يكفي وحده، بل لابد من الابتلاء والاختبار لتمييز المؤمنين الصادقين الذين تعمَّق الإيمان في قلوبهم، من الكاذبين الذين آمنوا بالقول حسب. فمعنى الآيات وسياقها يحتم أن تكون (الفتنة) في هذا النص بمعنى (الابتلاء والاختبار) وهو أظهرُ معانيها، لأنه منقول من امتحان الذهب بالنار لتعرف جودته من رداءته(٢)، إلى امتحان المؤمن بالشدائد ليُعرف صدق إيمانه من كذبه، وهذا من النقل الدلالي بطريق المشابهة.

الصلاة: وقد لاحظتُ أنَّ بعض التأويلات المستندة إلى قرينة السياق، ربما أيّدتها قرائن أخرى غير السياق اللغوي، كقرينة الحال أو الموقف مثلاً، وهذا يمنح الرأي قوة ووجاهة. فمن ذلك أنَّ ابن عباس فسَّرَ (الصلاة) بـ(الدعاء) في قوله تعالى: [**ولا تجهرْ بِصلاتِك ولا تُخافتْ بها وابْتَغِ بين ذلك سبيلاً**][الإسراء:١١٠]، قال: «كانوا يجهرون بالدعاء فلما نزلت هذه الآية أُمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا»(٣). وقال مجاهد: «نزلت في الدعاء والمسألة»(٤). وقال آخرون: عنى بذلك قراءة القرآن(٥).

وقد تعاضدت القرائن الدلالية على ترجيح ما قاله ابن عباس. وأولها: القرينة اللغوية وهي أنَّ (الصلاة) في أصل معناها (الدعاء)، قال الراغب: «والصلاة التي هي

(١) ينظر: الوجوه والنظائر ص٧٨-٨٠.

(٢) تفسير مجاهد ص٤٩٣. وينظر: تفسير الطبري ٢٠/٨٢-٨٣.

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن ص٤٧٢.

(٤) تفسير الطبري ١٥/١٢٢-١٢٣.

(٥) تفسير الطبري ١٥/١٢٣.

العبادة المخصوصة أصلها الدعاء. وسُمِّيت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه»[١]. ولا يوجد ما يمنع من حمل (الصلاة) هنا على أصل معناها وهو الدعاء. والقرينة الثانية: حالية، وهي قصة نزول هذه الآية، فقد روي عن ابن عباس أنَّه قال: «كان النبي # ساجداً يدعو: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزلَ الله: **[قلِ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أياً ما تَدعوا فله الأسماء الحسنى]**»[٢]. فهذه الرواية تدل على أنَّ الآية نزلت في الدعاء خاصة.

والقرينة الثالثة: سياقية، وهي أنَّ صدر الآية وألفاظها دلَّتْ جميعها على الدعاء بوجه خاص قال تعالى: **[قلِ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أياً ما تَدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهرْ بِصلاتِك..]** الآية. وبهذه القرينة وحدها رجَّح الطبري قول ابن عباس، فقال: «وأَوْلى الأقوال بالصحة ما ذكرنا عن ابن عباس.. وأشبه الأقوال بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أنَّ قوله (ولا تجهرْ بِصلاتِك ولا تُخافتْ بها) عقيب قوله: (قلِ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أياً ما تَدعوا فله الأسماء الحسنى) وعقيب تقريع الكفار بكفرهم بالقرآن، (وذكر) بُعدهم منه ومن الإيمان. فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أَوْلى وأشبه بقوله: (ولا تجهرْ بِصلاتِكَ ولا تُخافتْ بها) أن يكون من سبب ما هو في سياقه من الكلام، ما لم يأت بمعنى يوجب صرفه عنه، أو يكون على انصرافه عنه دليل يُعلم به الانصراف عما هو في سياقه»[٣].

ومن دلالات لفظة (الصلاة) التي يُلْمَح فيها أثر السياق أيضاً، وأثر المعنى الكلي للنص، تأويل ابن عباس (الصلاة) بـ(التوحيد) في قوله تعالى: **[وذكَرَ اسمَ ربِّه فصلَّى]**[الأعلى:١٥]، قال: أي «وحَّدَ اللهَ سبحانه وتعالى»[٤]. وقال غيره: الصلاة ههنا الدعاء[٥]. وقال آخرون: عنى بها الصلوات الخمس[٦].

ويبدو لي أنَّ ابن عباس قد راعى في هذا التأويل موضوع السورة برمتها، فقد افتتحت بالدعوة إلى تنزيه الخالق، ثم تحدثت عن عظيم مخلوقاته التي أبدعها، قال تعالى: **[سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، والذي أخرج المَرعَى...]**

---

(١) المفردات ص٤٢١ (صلا).

(٢) تفسير الطبري ١٢١/١٥. وينظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٠٧.

(٣) تفسير الطبري ١٢٥/١٥.

(٤)و(٣)و(٤) تفسير الطبري ١٠٠/٣٠.

الآيات، فقوله: (سبِّحِ اسمَ ربِّك الأعلى) قال المفسرون: «معناه نزِّه اسم ربك أن تدعوَ به الآلهة والأوثان»[١].

وهذه الدعوة الصريحة إلى التوحيد اقترنت بذكر آلاء الله على عباده، التي يجب على العباد أن يقابلوها بالاعتراف بالشكر، وأول علامات الشكر هي توحيد مبدع هذه المخلوقات.

ثم يقول بعد ذكر تلك النِّعم: (قد أفلحَ من تزكَّى. وذكرَ اسمَ ربِّه فصلَّى). قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأوائل: إنَّ قوله: (قدْ أفلَحَ من تَزكَّى) يعني: من تطهر من الشرك[٢]. فيكون المرادف والمكافئ لهذا المعنى هو: التوحيد. وبذلك تتحقق أعلى درجات الانسجام في المعنى: قد أفلح من تطهر من الشِّرك وذكر الله ووحَّده.

خامساً: أثر السياق في تخصيص دلالة الألفاظ العامة

لقد كان تخصيص دلالة اللفظ العام أحد أنماط التأويلات التي أُثرت عن المفسرين الأوائل، ومن خلال دراستي لتلك التأويلات التي خصصت دلالة بعض الألفاظ القرآنية وجدت أن أولئك المفسرين كانوا يسلكون في تخصيص دلالة تلك الألفاظ أساليب شتى فهم كثيراً ما يستعينون بالقرائن الدلالية في تخصيص ما يخصصون دلالته من ألفاظ، ومن أهمِّ القرائن التي اعتمدوها في ذلك هي قرينة السياق التي كانت من الوسائل المهمة التي توسل بها أئمة التفسير بوجه عام، وكان لهذه القرينة أثرها في تخصيص دلالة بعض الألفاظ القرآنية، وباستقراء تلك التفسيرات وجدت أمثلة كثيرة على هذا النمط من التخصيص، وسأذكر طرفاً منها للتمثيل.

لقد خصص ابن عباس معنى (الفتنة) في قوله تعالى: [**وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ**][الأنفال:٣٩]، بأنه: (الشِّرك)[٣]. وقال مجاهد معناها في هذه الآية: «(يساف) و(نائلة)، صنمان كانا يُعبَدان»[٤]. وهذا القول مماثل لقول ابن عباس، لأنَّ عبادة الأصنام من أظهر أنواع الشرك. وقال آخرون: الفتنة في هذه الآية هي البلاء[٥].

وكلمة (الفتنة) من الكلمات التي تعددت دلالاتها في القرآن الكريم، فقد قيل: إنَّها

---

(١) نفسه ٣٠/٩٧.

(٢) نفسه ٣٠/٩٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٣/٥٣٨ (ق). وتفسير سفيان الثوري ص٧٧.

(٤) تفسير الطبري ١٣/٥٣٩. ويساف أو إساف ونائلة صنمان كانت تعبدهما قريش قبل الإسلام. تفسير الطبري ٩/٢٠٨ الهامش (ق).

(٥) تفسير الطبري ١٣/٥٣٨ (ق).

جاءت على وجوه، منها: الشرك، والكفر، والبلاء، والعذاب في الدنيا، والحرق بالنار، والقتل، والصد، والضلالة، والمعذرة، والعبرة[١].

ويبدو لي أنَّ تفسير ابن عباس ومجاهد لمعنى الفتنة في هذه الآية بأنَّه: (الشرك) قد استند إلى دلالة السياق وقرينة الحال أيضاً، فقد أُنزلت هذه الآيات بعد معركة بدر، وكانت تُذَكِّر المسلمين بنعمة النصر فيها، وتحضهم على قتال المشركين حتى يكون الدين خالصاً لله وحده. وبذلك يتبين لنا أنَّ القول بأنَّ معنى (الفتنة) هنا هو (البلاء) لا موضع له.

وبهاتين القرينتين أيضاً خصص عدد من المفسرين (الفتنة) بأنها (الشرك)، في قوله تعالى: **[والفتنة أشدُّ من القتل]**[البقرة:١٩١]، قال مجاهد: «يقول: ارتداد المؤمن إلى الوثن، أشدُّ من أن يَقتل محقاً»[٢].

وفي قوله تعالى: **[وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين لله]** [البقرة:١٩٣]، قال ابن عباس وغيره: «الفتنة هنا الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين»[٣] وعن مجاهد مثله[٤]، وقد ذكر المفسرون أنَّ سبب نزول هذه الآيات هو أنَّ المسلمين قتلوا أحد المشركين في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، فوجدها المشركون ذريعة للتشهير بالمسلمين، وقالوا: قتلتم في الشهر الحرام[٥]. فأنزل الله هذه الآيات، التي تشير قصتها ويدل سياقها على أنَّ «الشرك أعظم جرماً عند الله من القتل في الشهر الحرام»[٦].

ومن التخصيص بقرينة السياق قول ابن عباس ومجاهد إنَّ معنى (الرحمة) هو (الرزق) في قوله تعالى: **[وإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك ترجوها]**[الإسراء:٢٨]، قالا: الرحمة هنا (الرزق)[٧]. وكلمة (الرحمة) من الكلمات التي كثرت دلالاتها في القرآن الكريم، وقد ذكر لها المصنفون في الوجوه والنظائر في القرآن

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر ص٧٨-٨٠.

(٢) تفسير مجاهد ص٩٨. وينظر: الوجوه والنظائر ص٧٨.

(٣) تفسير القرطبي ٣٥٤/٢.

(٤) ينظر: تفسير مجاهد ص٩٨، الوجوه والنظائر ص٧٨.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٤٠/٣.

(٦) الوجوه والنظائر ص٧٨.

(٧) ينظر: صحيح البخاري ١٤٩/٣. تفسير مجاهد ص٣٦١.

الكريم أحد عشر وجهاً أو دلالة[١].

ويبدو أنَّ تخصيص (الرحمة) في هذه الآية بالرزق استند إلى قرينتين، إحداهما من السياق. لأنَّ الآيات السابقة لهذه الآية واللاحقة لها تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله، والثانية: قرينة حالية، تتعلق بسبب نزول هذه الآية، وهو أنَّ قوماً من مزينة جاؤوا إلى النبي # يستحملونه، فقال: (لا أجدُ ما أحملُكُم عليه) فحزنوا لذلك، فأنزل الله هذه الآية[٢].

وحُمِل معنى (الرحمة) على أنه (الرزق) في آيات أُخَر منها قوله تعالى: **[قُل لو أنتم تَملكون خزائنَ رحمة ربِّي إذاً لأمْسَكْتم خَشيةَ الإنفاق]**[الإسراء:١٠٠][٣] وقوله تعالى: **[ما يَفتح اللَّهُ لِلنَّاسِ من رحمةٍ]**[فاطر:٢]، وقوله: **[ربَّنا آتِنا من لدُنْكَ رحمة]** [الكهف:١٠][٤]، ففي هذه الآيات خصصت الرحمة بأنها الرزق بدلالة السياق.

وعندما تكثر الوجوه والدلالات للفظة قرآنية ذات دلالة عامة، فإنَّ أئمة التفسير يخصصون معناها بأحد تلك الوجوه من غير تعليل، وهم غالباً ما يسترشدون بدلالة السياق في أكثر تلك التأويلات، ولكنهم لا يشيرون إلى ذلك. فقد قيل: إنَّ لفظة (الماعون) في قوله تعالى: **[ويَمنعون المَاعون]**[الماعون:٧]، فيها اثنا عشر قولاً: أحدها أنها الزكاة المفروضة. وقيل: المال، وقيل: اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار. وقيل: إنَّ الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة من قليل وكثير. وقيل: إنه العارية، وقيل: إنه المعروف كلُّه الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وقيل: الماء والكلأ، إلى غير ذلك من الأقوال[٥] وقد اختار ابن عباس ومجاهد أنَّ (الماعون) هو الزكاة المفروضة[٦]. من غير تفسير لهذا الاختيار، ولو بحثنا عن الحجة التي اعتمداها في هذا التفسير، فإننا نرجح أنْ تكون تلك الحجة هي قرينة السياق القرآني عامة؛ لأن لفظة (الصلاة) جاءت في معظم السياقات القرآنية مقترنة بالزكاة، فوصف أولئك القوم في هذه السورة بأنهم مقصِّرون في صلاتهم يقتضي ضمناً أن يكونوا مانعين للزكاة أيضاً، إذ إنَّ الإخلال بإحداهما يعني

(١) ينظر: الوجوه والنظائر ص٥٣.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ٢٤٨/١٠-٢٤٩.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٣٣٥/١٠.
(٤) ينظر: الوجوه والنظائر ص٥٤-٥٥.
(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٢١٣/٢٠-٢١٤.
(٦) ينظر: تفسير القرطبي ٢١٣/٢٠، تفسير مجاهد ص٧٨٨.

الإخلال بالثانية، وهذه إشارة تدلُّنا على أنَّ أئمة المفسرين كانوا ينظرون إلى القرآن على أنه سياق واحد، وهذا ما يتفق مع أحدث المقولات في علم الدلالة، التي تذهب إلى أنَّ السياق ينبغي أن يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة بل والقطعة كلها والكتاب كلَّه، كما ينبغي أن يشمل كلَّ ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات. وأنَّ العناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن(١).

ومن الأمثلة على تخصيص الدلالة بالاستناد إلى قرينة السياق أيضاً، لفظة (الخير) وهي من الألفاظ المشتركة التي تعددت دلالاتها في القرآن الكريم، فقد ذكر لها علماء الوجوه والنظائر ثماني دلالات(٢)، وإحدى دلالاتها عامة، يُراد بها مطلق الخير، وهو المقابل للشر، قال الراغب الأصفهاني: «وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال، وعند كل أحد»(٣). قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: [**والصُّلْحُ خير**][النساء:١٢٨]: «لفظ عام يقتضي أنَّ الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق»(٤) وفي تفسير قوله تعالى: [**لا يَسْأمُ الإنسانُ من دعاءِ الخير**][فصلت:٤٩]، قال: «والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز»(٥).

وقد خُصصت لفظة (الخير) في السياق القرآني في مواضع كثيرة بالمال عامة، من حيث إنَّ إنفاق المال على المحتاجين والمستحقين أحد وجوه الخير، قال تعالى: [**قلْ ما أنْفقْتُمْ من خير فلِلوالدين...**][البقرة:٢١٥]، فقرينة السياق تدل على أنَّ المراد بالخير هنا هو (المال) والقرينة اللفظية هي الفعل (أنفقتم) لأنَّ الإنفاق لا يكون إلا من المال: قال الطبري: «والخير الذي قال جلَّ ثناؤه في قوله: **(قلْ ما أنْفقْتُمْ من خير)**، هو المال...»(٦). أما الدلالة الثالثة فهي أخصُّ من الثانية، ذكرها ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى (الخير) في قوله تعالى [**إذا**

(١) ينظر: دور الكلمة في اللغة ص٥٥.
(٢) ينظر: الوجوه والنظائر ص٧٤.
(٣) المفردات ص٢٣١ (خير).
(٤) تفسير القرطبي ٤٠٦/٥.
(٥) نفسه ٣٧٢/١٥.
(٦) تفسير الطبري ٢٩٢/٤ (ق).

حضر أحدَكم الموتُ إن تَرَك خيراً][البقرة:١٨٠]، قالوا: «الخير هنا المال»[١] أي: مال الإرث الذي يخلفه الميت، وهذه الدلالة أخصُّ من التي قبلها، وقد خُصص (الخير) في هذه الآية بمال الإرث بقرينتين حالية وسياقية اكتنفت اللفظة من جهتيها.

الأولى: قوله تعالى قبلها مباشرة: **(كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ)**.

والثانية: قوله تعالى بعدها مباشرة: **(الوصيةُ للوالدين والأقربين)**، والوصية تكون عند الاحتضار ودُنُوِّ الأجل، وعند وجود مال للمحتضر يقسمه بين ورثته.

سادساً: أثر المصاحبات اللغوية في توجيه الدلالة

ومما يمكن أن يُصنَّف ضمن قرينة السياق اللغوي أيضاً، مجيء بعض الألفاظ مصاحبة لألفاظ أخرى، ومقترنة بها في أكثر التراكيب اللغوية، كما أنَّ ذِكر بعض الألفاظ يستدعي ذِكر ألفاظ أخرى تناظرها وتقابلها في بعض الأحيان. وقد تكون العلاقة بين اللفظين علاقة اشتراك أو علاقة تضاد.

فالصدق يقترن عادة بأوصاف الأمانة والوفاء، والغدر يقترن بأوصاف الخيانة ونقض العهود، والكرم يقترن بالسخاء والبذل، والصدق يضاده الكذب، والغدر نقيضه الوفاء، والكرم يناقضه البخل، إلى آخر هذه الصفات المتلازمة أو المتعارضة. وقد لاحظت أنَّ أئمة التفسير قد تنبهوا إلى العلاقات والروابط الدلالية بين هذه الألفاظ داخل النص الواحد، فقد كان اللفظ المعروف الدلالة قرينة لمعرفة اللفظ الغامض الدلالة، ولتوجيه دلالة اللفظ المشترك، إذا وردا مقترنين في سياق واحد.

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله مجاهد في تأويل (الظلم) في قوله تعالى: [**فقد جاؤوا ظُلماً وزُوراً**][الفرقان:٤]، قال: الظلم، الكذب[٢]. والظلم معناه الأصلي: «وضع الشيء في غير موضعه تعدِّياً»[٣]. والذي يبدو لي أنَّه وَجَّهَ لفظة (الظلم) إلى معنى الكذب بسبب اقترانها بلفظة (الزُّور) التي تعني أيضاً: «الكذب لأنه مائل عن طريقة الحق»[٤]. فكلا اللفظين يدلان على الميل والانحراف عن الحق. قال الراغب: «وقيل

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٢٥٩/٢، تفسير مجاهد ص٩٥.

(٢) ينظر: تفسير مجاهد ص٤٤٧. تفسير الطبري ١٣٧/١٨.

(٣) مقاييس اللغة ٤٦٨/٣ (ظلم).

(٤) مقاييس اللغة ٣٦/٣ (زور).

للكذب زور لكونه مائلاً عن جهته»[١].

والقرينة الثانية التي تؤيد هذا التأويل مستوحاة من السياق، قال تعالى: [**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افْتراهُ وأعانهُ عليه قومٌ آخرونَ فقد جاؤوا ظُلماً وزُوراً**]. فقد جاءت لفظة (ظلماً) في سياق وصف قول الكافرين هذا، ومن الأوصاف التي يوصف بها القول عادة هي الصدق أو الكذب، وأحسن وصف لقولهم أنَّه كذب وزور.

وهذه الدلالة للفظة (الظلم) لم يذكرها مصنفو الوجوه والنظائر في القرآن الكريم[٢].

وبهذا التأويل أيضاً فسَّر مجاهد لفظة (الزُور) في قوله تعالى: [**واجتنِبوا قولَ الزُّور**][الحج:٣٠]، قال: يعني الكذب[٣]. وعن ابن عباس: «يعني الافتراء على الله والتكذيب»[٤]. والمعنيان متقاربان.

ومن ذلك أيضاً ما قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما من المفسرين في تأويل قوله تعالى: [**يُرسَل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تَنْتصِران**][الرحمن:٣٥]، قال ابن عباس: (شواظ من نار) يعني: لهب النار[٥]. وعنه أيضاً: «الشُّواظ اللهب الذي لا دخان له»[٦]. وعن مجاهد مثله[٧]. وفي رواية عنه: الشواظ: الأخضر المنقطع من النار[٨]. أما (النُّحاس) فهو عند ابن عباس: (دخان النار). وقال مجاهد وآخرون: هو (الصُّفْر) يُذاب من فوق رؤوسهم[٩]. وجاء في (لسان العرب): «الشِّواظ والشُّواظ: اللهب الذي لا دخان فيه»[١٠]، «والنُّحاس: -بضم النون- الدخان الذي لا لهب فيه. وفي التنزيل: (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ من نارٍ وَنُحَاسٌ)... قال الجعدي:

---

(١) المفردات ص٣١٨ (زور).

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر ص١٠٢.

(٣) ينظر: تفسير مجاهد ص٤٢٤. تفسير الطبري ١١٢/١٧.

(٤) تفسير الطبري ١١٢/١٧.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٨١/٢٧.

(٦) سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس ص١٣.

(٧) ينظر: تفسير مجاهد ص٦٤٢.

(٨) ينظر: تفسير الطبري ٨١/٢٧.

(٩) نفسه ٨٢/٢٧.

(١٠) لسان العرب ٤٤٦/٧ (شواظ).

يضيء كضوء سراجِ السليـ ـطِ لم يجعل اللهُ فيه نُحاسا

وقال أبو حنيفة: النحاس الدخان الذي يعلو وتضعف حرارته ويخلص من اللهب»[١].

ومن الواضح أنَّ تفسير (النحاس) بالدخان استند إلى تفسير (الشُّواظ) باللهب، فبما أنَّ (الشواظ) لهب لا دخان فيه، فالمفترض أن يكون (النحاس) دخاناً لا لهب فيه، ولولا هذا التقابل في المعنى لكان من الممكن القول: إنَّ (النحاس) هنا هو المعدن المعروف، كما ذهب إلى ذلك بعض المؤوِّلين. وقد رجَّح الطبري القول الأول بالقرينة نفسها، فقال: «وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالنحاس الدخان وذلك أنَّه جلَّ ثناؤه ذكر أنَّه يرسل على هذين الحيين (شواظ من نار)، وهو النار المحضة التي لا يخلطها دخان، والذي هو أَوْلى بالكلام أنه (حين) توعَّدهم بنار هذه صفتها أن يتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعها من العذاب، دون ما هو من غير جنسها وذلك هو الدخان. والعرب تسمي الدخان نحاساً...»[٢].

ومن الأمثلة على هذا الضرب أيضاً في المعاني المتضادة، ما قاله ابن عباس في تفسير قوله تعالى: **[وأعطى قليلاً وأكْدى]**[النجم:٣٤]، قال: أعطى قليلاً ثم انقطع. وقال مجاهد: انقطع فلا يعطي شيئاً، ألم تر إلى البئر يقال لها أكدت[٣]. وقال أبو عبيدة: إنَّ معنى (أكدى) قطع، وهو مأخوذ من كُدْية البئر «وهو أن يحفر حتى ييأس من الماء فيقول: بلغنا كُدْيتها»[٤]. وجاء في (اللسان) أنَّ الفعل (أكْدى) يدل على البخل وعلى العطاء القليل[٥]. لكنه في هذا التأويل وُجِّه إلى معنى قطع العطاء بشكل تام، بقرينة قوله: (أعطى قليلاً)، فالعطاء الكثير قد يقابله أو يناسبه تقليل العطاء، ولكن إذا كان ذلك العطاء قليلاً في الأصل، فإنَّ الحالة السوأى هي قطعه كلِّية.

ومما تجب ملاحظته هنا، أنَّ هذا الفعل (أكدى) منقول من مجال استعماله إلى مجال آخر، حيث شُبّه به الإنسان الذي يعطي القليل ثم يقطع ذلك القليل. أو الإنسان الذي يؤمن على وَجَل ثم يرجع عن إيمانه ذاك، وقد جاء في بعض الروايات أنَّ المعنيَّ

(١) نفسه ٢٢٧/٦ (نحس). وينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة ٢٤٤/٢-٢٤٥.
(٢) تفسير الطبري ٨٢/٢٧.
(٣) نفسه ٤٢/٢٧.
(٤) مجاز القرآن ٢٣٨/٢.
(٥) ينظر: لسان العرب ٢١٦/١٥ (كدا).

بهذه الآية هو الوليد بن المغيرة[١].

ومن الألفاظ التي ظهرت دلالتها بقرينة التضاد في المعنى داخل السياق، لفظة (الزمهرير) في قوله تعالى في وصف حال أهل الجنة: [**لا يَرونَ فيها شمساً ولا زَمهَريراً**][الدهر:١٣]، قال ابن عباس وغيره: «لا يصيبهم حرُّ الشمس فيؤذيهم ولا البرد»[٢]. وقال مجاهد: «الزمهرير: البرد المفظع»[٣]. وجاء في (اللسان): «الزمهرير: شدة البرد، قال الأعشى:

من القاصرات سجوف الحجا ل، لم تَرَ شمساً ولا زمهريراً»[٤]

فالحر الشديد يضاده في العادة البرد الشديد، وهذه الضدية في المعنى من الدلائل على وجاهة هذا التأويل، فإنَّه وإن كان لهذه اللفظة دلالات أخرى، فالأَوْلى أن تُحمل على هذه الدلالة بسبب وجود ما يناظرها ويضادُّها في السياق.

ومن الألفاظ التي فسرت بعلاقة أُسَمِّيها: (الاستلزام) لألفاظ أخرى لفظة (الدُّسُر) في قوله تعالى يصف إنقاذ نوح عليه السلام ومن معه في السفينة: [**وحملْناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر**][القمر:١٣]، قال ابن عباس وغيره: الدُّسُر المسامير التي تُشَدُّ بها السفينة[٥]. وقال آخرون: الدُّسُر: صدر السفينة لأنَّه يدفع الماء ويدسره. وقال مجاهد (الدُّسر) عوارض السفينة. وعنه أيضاً أنَّها: أضلاع السفينة[٦]. وهو شبيه بقوله السالف.

ويبدو لي أنَّ ما ذهب إليه ابن عباس هو الصحيح، لأنَّ ألواح السفينة تستلزم وسيلة لتثبيتها وشدِّها، كالمسامير أو الحبال أو غير ذلك. لذلك فإنَّ القول: إنَّ الدُّسر عوارض السفينة أو أضلاعها لا وجه له، لأنَّ الألواح هي أيضاً من عوارض السفينة وأضلاعها، وهي تحتاج إلى ما يجمعها إلى بعضها بعضاً. كما أنَّه لا يسوغ القول: (وحملناه على ذات ألواح وألواح). وقد جاء في اللسان: «والدِّسار: خيط من ليف يُشَدُّ به ألواحها (أي السفينة) وقيل: هو

---

(١) ينظر: تفسير مجاهد ص٦٣١.

(٢) سؤالات نافع بن الأزرق ص٤٤. وينظر: تفسير الطبري ١٣٢/٢٩.

(٣) تفسير الطبري ١٣١/٢٩.

(٤) لسان العرب ٣٣٠/٤ (زمهر).

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٥٥/٢٧. سؤالات نافع بن الأزرق ص٤٦.

(٦)ينظر: تفسير الطبري ٥٥/٢٧.

مسمارها، والجمع دسر»[1].

سابعاً: أثر قرينة السياق في تفسير دلالة العبارات

لقد كانت قرينة السياق عوناً للمفسرين في الكشف عن دلالة كثير من العبارات القرآنية أيضاً لا الألفاظ المفردة فحسب، وعندما تكون العبارة محتمِلة لأكثر من وجه فإنَّ عنصر السياق يكون حاسماً في ترجيح واحد من تلك الوجوه، لأنَّ الكشف عن الدلالة الدقيقة أو القريبة لتلك العبارة، يقتضي النظر في سياقها اللفظي الذي جاءت فيه وهو ما تقدَّمها أو تلاها أو صاحَبَها من جمل وكلمات. ولولا السياق لما عرفنا المقصود من قوله تعالى: [**وخلَقنا لهم مِن مثلِهِ ما يركبون**][يس:٤٢]، فقد قال ابن عباس: هي السفن، وقال مجاهد هي الأنعام[2]. والراجح ما قاله ابن عباس لأنَّ القرائن اللفظية تضافرت على أنَّ المراد بهذه الآية هو السفن. فقد قال قبلها مباشرة: [**وآيةٌ لهم أنَّا حملْنا ذُريَّتَهم في الفلكِ المشحون**] وأكثر المفسرين على أنَّ المراد (بالفلك المشحون) هو سفينة نوح عليه السلام[3]. وقد عاد الضمير عليها في قوله: (من مثله) مما يدلُّ على أنَّ المقصود: من مثل تلك السفينة وهذه هي القرينة الأولى. أما القرينة الثانية فهي قوله بعد تلك الآية مباشرة: [**وإنْ نَشَأْ نُغرقْهم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنْقَذون**] والغرق لا يكون بركوب الأنعام وإنَّما بركوب السفن.

قال الطبري: «وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال: عنى بذلك السفن، وذلك لدلالة قوله: (وإن نَشَأْ نُغرقْهم فلا صريخَ لهم)... وذلك أنَّ الغرق معلوم أنَّه لا يكون إلا في الماء ولا غرق في البر»[4].

ومن الأدلة أيضاً على استعانة المفسرين بقرينة السياق اللفظي في توجيه دلالة بعض العبارات القرآنية، ما رُوي عن ابن عباس في توجيه قوله تعالى: [**ادفع بالتي هي أحسن**][فصلت:٣٤]، قال: «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم والعفو عند

(١) لسان العرب ٢٨٤/٤ (دسر).

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٨/٢٣. فتح الباري ٦٩٤/٨.

(٣) تفسير الطبري ٧/٢٣.

(٤) تفسير الطبري ٨/٢٣.

الإساءة»[1]. وقال مجاهد وآخرون: معنى الآية: «ادفع بالسلام على من أساء إليك»[2]. وهذا القول أخصُّ من سابقه، وهو ينسجم مع سياق الآية التي تحضُّ المسلم على ألاَّ يقابل الإساءة بالإساءة، وإذا ما لَقِيَه عدوُّه فعليه أن يُظهر له التسامح والود، وأول علاماته أن يبادره بالسلام، وإذا وُضعت تلك الجملة في سياقها من الآية اتضح هذا المعنى بشكل ظاهر، قال تعالى: [**ولا تستوي الحسنة ولا السيئةُ ادفع بالتي هي أَحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم**].

لقد تبيَّن من خلال ما تقدم أن أئمة المفسرين بوجه عام قد اهتموا بالسياق اللغوي في الكشف عن المعنى القرآني اهتماماً كبيراً، وأنهم اعتنوا بهذه القرينة عناية كبرى، وأفادوا منها كثيراً في ميدان تفسير معاني الآيات القرآنية، وخاصة عندما يصادفهم في تلك الآيات أحدُ الألفاظ المشتركة الدلالة، فقد كانت قرينة السياق عنصراً مهماً في التفريق بين الدلالات وفي تعيين دلالة اللفظ المشترك، وتخصيص دلالة الألفاظ العامة، وقد ظهر لنا من خلال جملة من الأمثلة والتطبيقات أنَّ آثار تلك القرينة كانت بادية في أكثر تلك التفسيرات التي أوردناها، ولا سيما في الألفاظ المشتركة، كما ظهر لنا أهمية هذه القرينة في الكشف عن معاني العبارات المحتملة لأكثر من معنى أيضاً وليس الألفاظ المضمنة في تلك النصوص فحسب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- أساس البلاغة: الزمخشري، محمود بن عمر، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢- أسباب النزول: الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري، ط٢، بيروت ١٩٨٥م. تحقيق/ السيد أحمد صقر.

(١)و(٤) تفسير الطبري ٧٦/٢٤. وينظر: فتح الباري ٧٢١/٨.

٣- بدائع الفوائد: لابن قيم الجوزية، نشر/ دار الرياض الحديثة، الرياض، د.ت مصورة عن طبعة المنيرية بمصر (د.ت).

٤- البرهان في علوم القرآن (١-٤): بدر الدين الزركشي محمد بن عبد الله. تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١ ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٥- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. تحقيق/ السيد أحمد صقر، القاهرة، ط٢ - ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٦- تفسير القرآن الكريم: سفيان الثوري. تحقيق/ امتياز علي عرشي، الهند ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٧- تفسير مجاهد: مجاهد بن جبر. تحقيق/ عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، قطر، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ-١٩٧٦.

٨- جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) محمد بن جرير. وقد اعتمدت على طبعتين، الأولى: طبعة القاهرة (١-٣٠) ١٣٢٣هـ بولاق، ونشرت مصورة في بيروت، دار المعرفة ١٩٨٧م. والثانية: طبعة الشيخ محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر (د.ت) وأشرت إليها بالرمز (ق) أو المحققة. وهي في أربعة عشر مجلداً، حتى نهاية سورة التوبة.

٩- الجامع الصحيح (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل، الناشر/ دار الفكر، بيروت ١٩٨٦م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن (١-٣٠) (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد. تصحيح أحمد عبد العليم البردوني وآخرين، بيروت، ط٢ مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.

١١- دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان. ترجمة د.كمال بشر، مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧٥م.

١٢- سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس. تحقيق/ د.إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨م.

١٣- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس. تحقيق/ السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٧م.

١٤- علم الدلالة: د. أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١ - ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٥- علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق: د.فايز الداية، الناشر/ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٨م.

١٦- علم اللغة وفقه اللغة - تحديد وتوضيح: د.عبد العزيز مطر، دار قطري بن الفجاءة، قطر ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٧- علم اللغة - مقدمة للقارئ العربي: د.محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت).

١٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري (١-١٤): ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ - ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٩- لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت - د.ت.

٢٠- اللغة: جوزيف فندريس. ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ود. محمد القصاص، الناشر/ مكتبة الانجلو المصرية، بالقاهرة ١٣٧٠هـ-١٩٥٠م.

٢١- اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز. ترجمة/ د.عباس صادق عبد الوهاب، الناشر دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١ - ١٩٨٧م.

٢٢- مجاز القرآن (١-٢) أبو عبيدة معمر بن المثنى. تحقيق/ د.محمد فؤاد سزكين، الناشر محمد سامي الخانجي، القاهرة، ط١ - ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م.

٢٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١-٢): السيوطي. تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الفكر، القاهرة ١٩٥٨م.

٢٤- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني. تحقيق/ محمد أحمد خلف الله، الناشر/ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

٢٥- مقاييس اللغة (١-٦): ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ-١٩٧١م.

٢٦- منهج البحث اللغوي: د.علي زوين، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦م.

٢٧- منهج الخليل في دراسة الدلالة القرآنية: د.أحمد نصيف الجنابي، بحث منشور ضمن كتاب المعجمية العربية - مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٨- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: هارون بن موسى. تحقيق/ د.حاتم الضامن، الناشر/ وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ط١ - ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.